جامعة محمد خيضر-بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربيّة

مخبر وحدة التّكوين والبحث في نظريّات القراءة ومناهجها

مداخلة المُشاركة في الملتقى الوطني الموسوم بـ:

سوق اللغات في الجزائر وسبل الانسجام الاجتماعي في ظل العولمة الثقافية

يوم: 07 أفريل2021

عنوان المداخلة: أزمة الهوية اللغوية في الجزائر

اسم المشارك ولقبه: جميلة قرين

الرتبة العلمية: أستاذ محاضر أ

المؤسسة: جامعة محمد خيضر بسكرة

البريد الالكتروني: djamila.grine@univ-biskra.dz

يعد بناء هوية وطنية جامعة يؤمن بها جميع الجزائريين أكبر تحد تركه المستعمر الفرنسي أمام الشعب الجزائري بعد نيل استقلاله، إذ دأب الفرنسيون طوال مائة وثلاثين سنة من احتلالهم على طمس الهوية الجزائرية ومسخها ثقافيا ولغويا وعرقيا وتاريخيا، وإثارة النعرات الجهوية بين العرب والأمازيغ، ما شكل أساسا للصعوبات التي واجهت تشكيل وبناء هوية جامعة.

تكتسب اللغة العربية أهمية كبيرة كونها من أهم عوامل إرساء الوحدة والتماسك بين عناصر المجتمع، كما أنها رمز للهوية، تلك الهوية التي تجمع العرب من المحيط إلى الخليج، ونقصد بالهوية الوطنية أو الذاتية «السمات المميزة لطابع الفرد أو الجماعة التي تتصل بماهيتهم، وبالميادين ذات العلاقة العميقة لوجودهم.» [1] لذلك فإن أهمية الهوية الوطنية تكمن في الحفاظ على اللغة الوطنية على تطوير المعارف، واستيعاب جميع التطورات التي تواكب العصر. ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية، فلا غرو إذن أنها من أبرز العناصر الأساسية في الحفاظ على تماسك المجتمع، بالنظر إلى الوظائف التي تؤديها.

وضمن هذا الدور التي تضطلع به اللغة العربية نجدها تتميز بثلاث خصائص مهمة:

1- تمثيلها في نظم يشترك في اتباعها المجتمع ويتخذها أفراده أساسا لتنظيم حياتهم الجمعية، وتنسيق العلاقات التي تربط بينهم.

2- إنها نتاج العقل الجمعي.

3- لا يمكن للفرد أن يخرج عنها أو عن نظامها، وإلا واجه عقاب المجتمع وازدراءه. [2]

ولعل المتأمل في تكوين المجتمعات الإنسانية، والمؤثرات المباشرة على ثقافتها وتاريخها وتكوينها الاجتماعي، يلاحظ الآثار الكبرى للغة العربية على الهوية الثقافية؛ إذ

تعتبر اللغة من أخص المكونات المؤثرة على الهوية، ووعاء المعرفة والثقافة ومهد انطلاقاتها الكبرى، هذا دون إغفال أنها «ابتكار مزدوج الأثر؛ إذ هي أداة الاتصال وأداة للتسجيل، تعمل بواسطة التعميم والتجريد على تثبيت المعرفة في الإدراكات، وتسمح لها بتطوير لا حد له».[3]

لذلك فاللغة العربية مقوم أساس من مقومات الثقافة العربية الإسلامية؛ ذلك أن العربية ليست لغة أداة فحسب، ولكنها لغة فكر أساسا، يقول "ليفي شتراوس" في كتابه (الآفاق الحزينة) (Trist tropiques) «... إننا حين نقول الإنسان (...) فإننا نعني اللغة وحين نقول اللغة (...) فإننا نقصد المجتمع.» [4]

وباعتبار اللغة لسان الجماعة ومرآة فكرها، ومنجم عطائها والملمح الرئيسي لخصوصياتها، فإن النظام العالمي الجديد يركز في أهدافه على هدم خصوصيات الآخرين على خطي اللغة والهوية، إذ يرى فيهما عنصرين مركزيين لأية ثقافة أو حضارة، «فحياة الأمم تقوم بلغاتها (...) أما الموت بالنسبة لها فليس إلا الحرمان من اللغة الخاصة بها.»[5]

ولعل الواقع العصيب الذي تعيشه اللغة العربية حاليا في الجزائر من تردي أحوالها ، وهوانها بين الناس، ما هو إلا نتيجة لمخطط استعماري، بدأته فرنسا أثناء الاحتلال، وأكمله بعد الاستقلال قوم منّا تشربوا أفكارها وانبهروا بحضارتها الزائفة، فتبنوا أهدافها القاضية بإزالة اللغة العربية، تمهيدا لفسخ الهوية العربية الإسلامية التي طالما كانت السد المنيع في وجه الغزاة والطامعين، يقول «عبد الكريم غلاب" : «كان المنظرون الاستعماريون يؤكدون أن الإسلام واللغة العربية هما ركيزتا هذه الشخصية، فقد حاولوا أن يهدموا الركيزة الأولى عن طريق ما يسمى بالسياسة البربرية، كما حاولوا أن يهدموا الركيزة الثانية بإحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية للقضاء على الذاتية. » [6]

إن اللغة العربية هي التي رسختها الدساتير منذ الثورة التحريرية، وهي أكبر حضارة ساعدت على تطور الإنسان الجزائري بأن أخرجته من قهر الرومان والبيزنطيين، وهذا ما حاولت فرنسا طمسه بكبت شعور الانتماء إلى الأمة العربية، فيقول في ذلك "ريمون طحان":«وقد حاول المستعمر أن يكتب شعور الانتماء إلى الأمة العربية بالحديد والنار، ولكنه لم يتمكن من استئصال اللغة القومية، لا سيّما انه ضيق على المحكومين وسائل التعبير الأخرى، فبرزت اللغة العربية كسلاح ما في معارك التحرير، وكوسيلة للتملص من تبعية المستعمر الذليلة ومن حكم المتسلط الفاسد».[7]

يبقى المجتمع الجزائري محافظا على عروبته لأنه على يقين بأنها من أبرز مقومات الشخصية الوطنية، داعيا وفق ذلك إلى اعتبارها لغة رسمية في المدارس والإدارة، يقول "البشير الإبراهيمي": «إن لغة العرب قطعة من وجود العرب وميزة من ميزاتهم، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة.» [8]

لقد أدركت الأمم دور اللغة في الحفاظ على هويتها، فالشعوب التي تحترم لغتها الأم، تعيد لها الاعتبار لتحافظ على هويتها وكيانها، وتكتسب بذلك احترام العالم، فاللغة هي السبيل القوي للحفاظ والثبات على المشاركة في الجماعة وعلى الهوية الخاصة بكل فرد، ويورد "ر.ل تراسك" مثالا على الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية، والتخلي عن اللغة يعني التخلي عن الهوية، وكأنه يقول: «لم أعد واحدا من جماعتكم لذلك تعد اللغة أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها.» [9]

وللحفاظ على الهوية من الضياع يجب الحفاظ على اللغة العربية، ولعلي لا أجد ما استشهد به خيرا مما قاله "محمود تيمور": «فإذا كانت الإمبراطورية العربية قد أسدل ستارها على مسرح السياسة، فهي قائمة في مظهر لغوي يربط بين من ضمت من الشعوب، ونحن نعمل بأوعيتنا الظاهرة والخفية على استبقاء رباطنا الإمبراطوري في صورة اللغة العربية،

كأننا بهذا الرباط نعمل على إحياء إمبراطوريتنا الزائلة، على نحو يلائم ملابسات الحضارة؛ فإيماننا بالقصص مستمد من إيماننا بتلك الإمبراطورية التي تتجمع فيها أمجادنا التليدة، وإننا بذلك الإيمان نستمسك بمقومات شخصيتنا العزيزة علينا، وعلى تاريخ الإنسانية جميعا، وفي هذا الاستمساك تلتف مشاعرنا الطبيعية؛ لحماية أنفسنا في معترك تنازع البقاء.» (10)

ولأن اللغة هي الأداة الرئيسية التي تمكن الكائن البشري من تنظيم تواصله، بل وإنتاجه، فإن هذا يقودنا إلى اعتبار الخطاب اللغوي في الجزائر– حسب أحد الباحثين– «قد دأب في تأسيس أطروحاته على نوعين رئيسيين من الاعتبار: اعتبار الحداثة، واعتبار الهوية، فالخطاب الناطق بالفرنسية يستند بصورة جوهرية على المطلب الأول، بينما الخطاب الناطق بالعربية يؤسس مشروعيته على المطلب الثاني، من غير أن ينفي عن نفسه طابع النجاعة أي الحداثة، أما النظر بوصفها عنصرا أساسيا للإدماج الاجتماعي للأفراد، فقد ظل غائبا في هذا النقاش.» (11)

إن الغاية من عملية التعريب هي جعل اللغة العربية لغة حضارة عصرية، تحتل جل المواقع التي تحتلها اللغة الفرنسية، في مجال الحداثة لكن لم يكن من السهل إطلاقا، إحلال اللغة العربية موقعها الطبيعي في مرحلة الاستقلال؛ ذلك أن اللغة الفرنسية تغلغلت في النسيج الثقافي والسياسي، ومن خلال تتبع السياسة اللغوية العدائية، يتبين أن الهدف من تلك الإجراءات اللغوية هو إضعاف الشخصية الوطنية، وجعل الجزائر مسرحا للهيمنة اللغوية والثقافية الفرنسية، يقول "**ساطع الحصري**": «ومع ذلك لم ينجحوا فيما كانوا يرمون إليه (...) ولم تنتج فعلته سوى تنفير الناس منهم، وابتعادهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام.» (12)

ويعترف الفرنسيون–في مرحلة ما–أن ما قاموا به من مغامرات لا طائل تحتها، وهذا ما تؤكده "**تورين**" "**Y. turin**" فتقول: «ويعترف الفرنسيون بالفشل، وفكروا في أسلوب جديد ومناهج أقرب إلى الواقع (...) واختطوا لتعليم اللغة العربية خططا في إطار القضاء على

الروح المعنوية (...) من خلال التعليم المزدوج في المدارس الفرنسية العربية، فلم يتغير موقف المواطنين، وبقيت تلك المؤسسات خالية.» [13]

لقد كانت اللغة الفرنسية أثناء تواجد الاستعمار، سلاح الجزائريين لمواجهته ومحاربته، لكن سرعان ما تحول هذا السلاح إلى وسيلة للزينة والتبرج والتمرن بعد الاستقلال، خاصة لدى الطبقة البرجوازية الجزائرية التي تعلمت من المستعمر لغته الفرنسية لتتشبه به، وهنا تظهر المفارقة الغربية في الفكر الجزائري. ولم يكتف الاستعمار بتهميش العربية فقط، بل قضى على كل ماله صلة بهذه اللغة إذ «لم يطرح الصدام بين العربية والأمازيغية إلا مع دخول فرنسا التي أقصت الأمازيغية والعربية من الاستعمال والتوظيف بشكل نهائي، وبقرار من الحاكم الفرنسي، وهذا منذ 1899 (...) وهذا كله يدخل في إطار الضم النهائي، وتذويب الكيان الثقافي في الجزائري في كيان فرنسا، وإضعاف الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية ومقوماتها الدينية.» [14]

وبربط علاقة اللغة العربية بالهوية في الجزائر نجد الأزمة متعلقة بصراع خماسي الأبعاد. [15]

1- الصراع من أجل إثبات الوجود رمزا للهوية، وعنصرا للشخصية الجزائرية.

2- صراعها لإثبات علميتها، ومن ثم إثبات جدوى استعمالها لغة للتعامل العلمي والرسمي، مرتكزة على ماضيها حين كانت لغة علم وحضارة، وهو الماضي الذي يدعم خيار التعريب في التعليم .

3- صراعها مع اللغتين الأمازيغية والفرنسية في آن واحد لكون المنتصرين للغة الأمازيغية هم ذاتهم- أو في معظمهم- المنتصرون للغة الفرنسية، خاصة حين تكون الأمازيغية قابلة للحرف الفرنسي لكتابتها، بينما ترفض الحرف العربي، وهو

الصراع الذي يراهن فيه دعاة الأمازيغية على دورها رمزا للهوية الجزائرية البربرية، وهو ما لا يمكن نكرانه حقيقته تاريخية، لكن حين يكون مناصرو الأمازيغية من الاستئصاليين ودعاة الانقسام، يصبح الأمر حقا أريد به باطل، وهو الأمر الذي انتبهت إليه السلطة في الجزائر، فنصبت اللغة الأمازيغية في الدستور الوطني [16]، دون أن تعطيها صفتها الرسمية، ليكون صراع العربية مع الفرنسية هو الصراع الأعظم.

4- صراعها مع اللهجة المحلية الجزائرية التي خلقتها على كرسي لغة الأم، فبدت العودة إلى اللغة العربية الفصيحة عودة إلى الارتباط بالمشرق العربي دون مراعاة الحاضر التكنولوجي والعلمي الذي على الجزائر أن تهتم به، الأمر الذي كان دائما يبحث في جدوى التعريب خارج هدف هذا الارتباط المركز على اللغة رمزا للهوية، وعن دوره بعد ذلك في دعم أداة للفكر في الجزائر المتعددة اللغات.

5- صراعها مع المعالجة الإيديولوجية القاصرة عن إعطاءها بعدها الحقيقي في دور الهوية، وجعلها تدور في حلبة صراعات سياسية، قوت فيها شوكة أعدائها من الرافضيين للتعريب ، حيث تحول رفضهم للتعريب إلى رفض للغة العربية نفسها، وظلت بالمقابل دفاعات المناصرين للتعريب واللغة العربية تؤكد بدل الارتقاء باللغة وتطوير دروسها على قدسيتها وعالميتها، متكئة على حقائق تراثية أفضت بالجهود إلى التحنيط اللغوي بدل التفتح على العصر وعلومه.

إن الواجب على أبناء اللغة العربية في الجزائر الوقت الراهن هو الاهتمام بها تعلما وتعليما، استعمالا وتأليفا، والاعتزاز بها كمكون من أهم مكونات الهوية الوطنية، وتفضيلها على غيرها من اللغات الأجنبية «ولهذا لا يجوز أن تقبل أحكام بعض المثقفين على اللسان العربي، وإن تكلموا بالعربية، إلا أنهم كانوا ضحايا لنظام الحماية الفرنسية، فأتقنوا لغة المستعمر ولم يتعلموا إلا النزر اليسير من لسانهم القومي.» [17]

إننا نتوق لتعود العربية لغة علم وازدهار، وتسهم بذلك في رقي المجتمع، واتصاله بمجده الماضي، ولتكون مطية إلى المستقبل الزاهر الذي يعتز فيه الفرد بكونه مسلما وعربيا و أمازيغيا، وهناك من يرى بأن التطور والتقدم لن يكون إلا باللغة الأم «لأن مواكبة حضارة العصر الحديث لن تكتمل بالنسبة إلينا معشر العرب إلا إذا توازت فيه ذاتيتنا العربية مع إنسانيتنا الحضارية، والمقوم الجوهري لهذه الذاتية هو اللغة العربية، التي بقيت كما يقول "**ماسينيون**" أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الحقل الدولي و عنصرا جوهريا للسلام في مستقبل الأمم والشعوب».[18]

ونحن وإن سلمنا بضرورة التمسك بالعربية كلغة قومية «تشمل كل مرافق حياتنا، لا نجيز لأنفسنا سياسة النعامة فندعي أن اللسان العربي يتمنع اليوم بكل قوى المناعة والحياة دون احتياج إلى تجرير وإثراء (...) حتى لا يقلص دور العربية لتكون مجرد لغة الفقه والتوحيد ولغة العبارات.» [19]

ومجمل القول يجب المحافظة على اللغة العربية بصفتها عنوان الهوية الجزائرية والحرص على تعزيز الحفاظ على الهوية، وعدم ذوبان الشخصية الثقافية بإذابة ونسف الهوية الذاتية عن طريق ضرب أركانها من الداخل، ولذلك يجب تثمين وتشجيع الجهود التي تبذل للحفاظ على اللغة العربية، وجعل الهدف الاستراتيجي في المرحلة القادمة الحفاظ على مكونات الهوية وترسيخها في المناهج التعليمية.

الهوامش:

[1] وصفي عقيل وآخرون: المواطنة والانتماء، إربد، الاردن، جامعة اليرموك، ص13.

(2) علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، دار النهضة بمصر، 1971، ص2.

(3) فندرس ج: اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1985، ص 12.

(4) أحمد أبو زيد (ليفي شتراوس عميد البنائيين في فرنسا) مجلة العريب، عدد 293، ابريل، وزارة الإعلام الكويت، 1983، ص 80.

(5) أبو خلدون ساطع الحصري، أراء وأحاديث في الوطنية والقومية، دار العلم، للملايين، بيروت، 1957، ص 107.

(6) عبد الكريم غلاب: التعريب ودوره في تدعيم حركات التحرر في المغرب العربي، بيروت، 1982، ص154.

(7) ريمون طحان: اللغة العربية وتحديات العصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984، ص26.

(8) أحمد بن نعمان: التعريب بين المبدأ والتطبيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 180.

(9) تراسك: أساسيات اللغة، تر: رانيا إبراهيم يوسف، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ع 381، ط1، 2002، ص96.

(10) مجلة تربوية ثقافية تصدرها وزارة التربية والتعليم الأساسي، ع3، السنة الأولى، 1982، ص12.

(11) إبراهيم سعدي: في إشكالية التواصل اللغوي: الجزائر نموذجا. www.arabe gyfriends.com/Nb/ archive/indexphp/t48750.html.

(12) ساطع الحصري: حوليات الثقافة العربية، دار الرياض للطبع والنشر، بيروت، 1951، ص473.

(13) Yvonne Turin : Affrontement culturel dans l'Algérie coloniale, Masperso.Paris. 1971, P51.

(14) صالح بلعيد: الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم مقال بمجلة المجلس الأعلى للغة العربية، ع19، 2007، الجزائر، ص07.

(15) ينظر: مسعودة خلاف: التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر (العلوم الاقتصادية نموذجا)، إشراف: أد/ حسن كاتب، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في اللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011/2010م، ص280.

(16) جاء في المادة الثالثة مكرر من الدستور:"تمازيغت هي كذلك لغة وطنية، تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها، بكل تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب الوطني، الدستور الوطني، الجريدة رقم 76، المؤرخة في 8 ديسمبر 1996.

(17) محمد عزيز الحباني: تأملات في اللغو واللغة، دار الكتاب العربي، ليبيا، 1980، ص 140.

(18) عبد العزيز بن عبد الله: تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات في المغرب منذ العصور الوسطى، مجلة اللسان العربي، مج 10، ج1، المنظمة العربية للثقافة والفنون، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، 1973، ص45.

(19) محمد عزيز الحباني: تأملات في اللغو واللغة، ص141.